من كتب الشرق والغرب

IL FAUT DE TOUT POUR FAIRE UN MONDE

ETIEMBLE

لا بد أن ناخذ من كل شيء جانبا ، لننشيء عالما *

عرف قراء « الكاتب المصرى » مارسل أرلان ، حين ترجمت فيه لهذا المؤلف ذى الأسلوب الرائق ، قصتان صغيرتان . والآن ، وقد قرأت هاتين الأقصوصتين فى الكتاب « لا بد أن نأخذ من كل شيء جانبا ، لننشئ عالما » الذى يضمهما فى وحدة أجدرها ألا تنفصلا عنها ، فانى أكاد أستشعر الأسف لأن جانبا من جمهور القارئين بالعربية ، قد عرف هذا الكتاب الرائع على ذلك النحو . ذلك لأنى أحسست أن الكتاب (كما يقول مارسل أرلان بحق فى مقدمته القصيرة) : « ليس مجموعة من الأقاصيص . فكل أقصوصة فيه قد أنشئت وكتبت لتشغل موضعا معينا لها فى الكتاب ، سواء أكان ذلك من ناحية المكان ، أو الجو الذي تعيش فيه الشخصيات ، أو موضوع الشخصيات ، أو طرائقهم فى الحديث أو حتى من ناحية حجم الأقصوصة ذاتها .

« وعنوان إحدى تلك الأقاصيص « لزجاج نافذة » يمكن أن يكون عنوانا للكتاب بأكمله . ذلك لأن تلك الأقاصيص تحاكى نقوش زجاج النوافذ فى كنيسة ريفية ومهما بدت شخصياتى متواضعة سيئة التصرف ، فانى أحس أنها لا تقل كالا ولا جيشانا عن أبطال المآسى . »

و إن مارسل أرلان الذى امتاز بمقالاته فى النقد قبل أن ينال جائزة جونكور بكتابه *L Ordre* ، والذى كان يدير قسم النقد القصصى بالمجلة الجديدة الفرنسية *Nouvelle Revue Française* أيام جان بولان ، لقاص قدير يستطيع الحكم على آثاره الأدبية . حقا إن الأمر لأمر زجاج نافذة ذى صور متباينة ألوانها ، ولكنها بفضل الضوء المنسكب تطبع فى النفس صورة ساحرة غامضة مؤتلفة ألوانها .

« لا بد أن نأخذ من كل شئ جانبا ، لننشئ عالما . » تلك كلمة سائرة ، تكاد تكون قولا مأثورا ، وذلك حق أو على الأقل كل شئ يسير كما لو كان من اللازم أن نأخذ جانبا من كل شئ وبخاصة جانبا من الشر ، لننشئ عالمنا . وفى الكتاب ثلاث أقاصيص تحمل هذا العنوان العام : المغسل ، السيد ليونار ، فى بيت الأرملة . فهذه الأقاصيص الثلاث تعرض علينا مشكلة الشر المعقدة فى صورة حية مهما تباين ما نصادفه فيها من شخصيات ، أطفالا كانوا أو مراهقين أو شيوخا . وهو يعرض لهذه المشكلة فى تحفظ دون أن يظهر شيئا من تلك الوحشية التى عودتنا إياها خلال مائة عام القصص المسماة « واقعية » .

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

فنحن لا نكاد نستشعر الواقعية فى أقاصيصه وهو لا يذكر القلق الجسدى إلا فجأة وفى قصد ، وخاصة فى أقصوصة « الغسل » فيصل بذلك إلى التأثير فى نفوسنا . وربما استطعنا أووجب علينا أن نقول إن هذه النظرة لعالم الشر لا تتفق ومبدأ الكاتب المسيحى الذى لا يستطيع مطلقا أن يوائم بين نفسه وجسده . وفى الحق أنه مهما خفت مسيحية أرلان فانه لا يستطيع بنظرته إلى الشر ، أن ينكر إلى أى حد تحيا الأخلاق المسيحية المجردة من المراسم لدى أكثر الفرنسيين حرية فى الفكر . ذلك لأن من يعيش مثله فى القرية ويعرف الريف يجد مظهرا آخر من مظاهر الشر والخطيئة لا يقل عن غيره عنفا ، ألا وهو حال الأجراء حين تقارن بحال المزارعين ، أو حال المالك الذى يجنى غلات أرض تزرعها أيد كليلة خشنة تكاد تشلها حركات العمل . وهناك أخيرا « الخبراء المهندسون » الذين يتطفلون على الأجير والمالك معا ، ودارهم التى تعد مع دار طبيب القرية والكاتب والصيدلى ، أرفع دور فى القرية ، لا تقوم إلا على عرق الفلاح . فاذا انتهينا من ذكر ذلك التحفظ الهام (ومارسل أرلان يقول ، دون أن يذكر سببا ، حتى لو تغير نظام الأرض فان عواطف أهل الأرض لن تتغير كثيرا أو قليلا) . فلنعترف أن لهذا الكتاب مزايا تجعله من خير ما كتب أرلان .

لقد بدأ كالجميع بأن ثار على النظام الاجتماعى ونظام العالم (كتب *L'ordre* عام ١٩٢٩) ، ثم فعل ما يفعله كل من يقدرون أنفسهم فاستشعر إغراء المطلق من الأشياء ، والتمس فى حب الزوجين ريا إنسانيا لعاطفته الملائكية . فأخرج «البحار الحارس» . وبكتبه «أرض الوطن» و« زليل الصحراء » و « أجمل أيامنا »أخذ يسلك سبيل الحكمة . فهو راض بحاله فى القرية قريبا من الأرض ، ومن القوم المتواضعين الذى يعملون فيها ، وهو يوائم بين نفسه وبين الحياة وما فيها من عظمة .

وكما يسود الموت والحياة حياتنا ، كذلك هما يسودان أقاصيصه . ففيها ترى أنواعا من الحب : الحب الزوجى المشروع ، والحب غير المشروع . وفيها تلقى الأرملة والفتاة الأم . وهناك حتى المرأة العاجزة التى تموت على فراشها التعس وهى تلد أول طفل لها . وهناك الخطيبة أيضا ، خطيبة الشرطى . وهكذا نلقى كل أنواع الحب . ذلك لأن الريف الفرنسى مربى دافئ تنمو فيه أغرب العواطف . ثم أليس من الواجب أن نأخذ بطرف من كل شئ لننشئ عالما ؟

ولا بد أيضا من الموتى ، من كثير من الموتى لتصحيح ما تؤدى إليه العواطف العنيفة من أخطاء . لا بد من موتى بقدر عدد الأحياء (١) . والموت فى القرية عديدة صوره ، شأنه فى ذلك شأن الحب ؛ فهناك السرطان ، وعودة الميت إلى مسقط رأسه . وهناك موت العريس ، ذلك الموت الجميل فى شناعته . وهناك موت المرأة العجوز نورين ، ذلك الموت الجميل حقا . وهناك الدور الذى تلعبه المقبرة فى الأقصوصة « على القبور » . ففيها ترى المرأة العجوز التى لا تحيا إلا بموتاها . فهى تعمل وتنظف وتجلو : « كان الواجب أن تضم هذه القبور العشرة فتنطوى فى قبر واحد ضخم يسود المقبرة كلها ، فيه كهوف وعليه صلبان منحوتة ، وغطاء من الرخام

(١) «الأحياء» هو أيضاً عنوان كتاب لمارسيل أرلاند .

تعلوه المشاعل والتيجان الخالدة وأزهار الكريزانتيم . عندئذ تستطيع تلك العجوز أن تؤدى فى كرامة ، صلاتها الأبدية من أجل الموتى ، تلك الصلاة التى فنيت فيها . قبر ضخم تجد فيه الأسرة كلها ملجأ أمينا . الأسرة كلها حتى أنسباؤها : زوجة الابن مثلا . لا أحد يرجو لها شرا . ولكن المسكينة رقيقة الصحة . والابن الأصغر حين يحين حينه ، بعد عمر طويل (مهما بلغ به العقوق فسندفنه كابن من أبنائنا) . والابن الأكبر مع شديد الأسف ، فذلك أمر لا بد منه ، الابن الأكبر ، رئيس الأسرة . قبر ضخم فخم تكمل فخامته بموتها هى .

العمل ، والحب ، والشر ، والموت ، وفتيان يموتون فى ريعان شبابهم ، وكهول يهربون وهم فى عبثهم الصبيانى ، وخيار ومتوسطون وأشرار . جانب من كل شئ لننشئ ذلك العالم : عالم قرية فرنسية . ويقول مارسل أرلاند : « والعالم الذى ينشئه كل أولئك قد يبدو محزنا شيئا ما ، ومجازفاتهم ومصايرهم قد تكون قاسية شيئا ما . ولكن هذا العالم رغم كل ذلك لا يدعو إلى اليأس . » وذلك صحيح ؛ أولا لأن مارسل أرلان يبدع فى إبراز ناحية الرحمة الالهية فى كل حياة يعرضها مهما كانت متواضعة ، تلك الرحمة التى تتدارك الحياة فتنقذها . وانظر إلى قصة ذلك الشرطى الخشن الذى خطب فتاة أحبت شخصا آخر كان قد اختفى ، وانظر إليه حين يذهب فى الليلة السابقة للزفاف ، يدفعه نداء تلك الرحمة الالهية التى همست فى أذنه « حان الوقت أيها الشرطى فأسرع » فاذا بهذا الخشن الثقيل يقفز درجات السلم أربعا فأربعا ليختطف من يدى حبيبته السم الذى كانت توشك أن تتناوله . نعم ! لم يكن صاحبنا شرطيا عاديا . لقد كان رئيسا « لنقطة » البوليس . فالرحمة الالهيه تتدارك إذن أكثر الناس تواضعا . وزيادة على ذلك فهناك الله ليساعد القرية ، هناك عدالة الله . فعند ما تموت عشيقة باشوم شر ميتة ، تقول القرية : « هذا عدل الله ». وعند ما يلعب سيزار مع منافسه دورا قذرا ، يقولون : « نعم هناك عدالة فى الحياة . » فاذا أصابت الصاعقة ابنا بارا فى الرابعة والعشرين، صاح القوم : «الموت يذهب بخيارنا » ، وتلك إرادة الله . وهذا لا يمنع لحسن الحظ أن تبلغ نورين التسعين وتتجاوزها . أليس الله عادلا ؟

فلا يأس لدى هؤلاء الناس ، وحياء الكاتب يضفى على تلك الأقاصيص المرحة المكشوفة تقريبا «زواج قيصر» ، «الغرفة» *La Chambre* شيئا من التحفظ والوئام والسلام ، وجوا من الشعر أحيانا مما يتيح لكل شئ أن يكون مستساغا .

كلا ! ليس هذا العالم يائسا ، إنه عالم ينتظر شيئا ما ! أى شئ ؟ ينتظر عالما آخر إن شئت ، ينتظر ذلك الفردوس الفانى قليلا فقليلا حيث لم تستطع نورين — بعد أن بلغت زوجها الميت ولاحظت أنه ما زال يمشى وهو يضغط حذاءه — أن تجعل صوتها يصل إلى مسامع رجلها : « وكانت قد نسيت ما تريد أن تقوله . ذلك لأنه لم يبق فى وضح النهار من تلك العجوز الضئيلة التى ماتت فى أول الصباح ، إلا شبحا إنسانيا ضئيلا ، متوترا بعض الشئ ، قبيحا شيئا ما ، شبحا أخذ يشحب ويدوب ثم اختفى . »

ابتيابل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده